

فهذه القصة من القصص التي تقاس بالذرة .. بمسحوق الحرف ،
لا بالحرف بأكمله فضلا عن الكلمة أو الجملة أو الفقرة .

تجعلنا نحس بالحرب التي خربت روح الانسان ، وهدمت مدنه ..
بل ومقابره أيضا لا في السويس وحدها ، ولا في القنيطرة وحدها ..
بل في كل شبر مهدد من أرض الانسان على مدى عصور التاريخ . حتى
مقبرة الصدقة لم تسلم منها .. انتهت الى أن أصبحت مسطحا وأسياخا
حديدية وعظاما وجماجم متناثرة ، يلوح بياضها الناصع وسط الحطام
والتراب . ان الكاتب هنا يستنطق الأشياء . يتركها تتكلم .. تدل ..
تشهد ، دون أن ينبس - لا هو ولا أبطاله - بمنت شفة . انه يرى الأشياء
بوضوح وتمعن ، لا يرى الألوان الأصلية والخطوط الظاهرة فقط ، وانما
كافة الألوان والظلال التي بين هذه وتلك - ولهذا فان الأشياء تحت عينيه
الشاقبتين تنطق .. تتكلم .. تدل .. تشهد . « لا يكفي أن ينظر الانسان
حواليه لكي يتمعن - كما يقول دوستوفسكى - بل ويتعلم كيف ينظر ،
ولا يتسنى هذا الا اذا كان المرء يحب وطنه ، ويحب شعبه . وليست
الرؤيا المطموسة والنثر العديم الروح الا نتيجة لبرودة دم المؤلف ، وهي
عرض من الأعراض الأكيدة لفقد الاحساس . وأحيانا يكون سببها مجرد
الافتقار الى المهارة أو نقص الثقافة ، هذان علاجهما مستطاع » (١٠) .

والراوى يحب وطنه ، ويحب شعبه . يؤمن بهما ويعشقهما . ولهذا
قد استطاع أن يعبر عن آلام الأرض والشعب بطريقة مغايرة لطرائق من
سبقوه ، قوامها لغة يجرى في عروقها دم حار ، ومن ثم فهي لا تتلأأ
ولا تمطى ولا تتثاب . بوابة المقابر سرقت . نزعا أخشابها وتركوها
هيكلا معلقا بالجدران المتداعية . هذا المنظر الذى واجهنا به الكاتب منذ
البداية ، ويرجى - ومن خلال جملة وحدة - بالفوضى التي تعم الديار أثناء
الحروب .. السرقة والنهب واختلال الأمن وهتك الأعراض و .. واذا
تركنا الأشياء .. همس الأشياء .. صراخ الأشياء .. شهادة الأشياء ،
فستصرخ هذه الفوضى أيضا من خلال حادثة السرقة العادية جدا التي
تحدث شبيهات لها أحيانا وسط القبور ، وما تبع هذه الحادثة من عنف ،
واغتصاب رجل لرجل ، واغتصاب امرأة لرجل .. نعم امرأة لرجل .
عنف وفحش « يؤكدان فى ذهنك صورة الميزان المقلوب » .

ووسط الوحشية والأنقاض والفحش والموت تنمو .. دائما تنمو
« بجوار المصطبة صبارة كبيرة ، نشرت فروعها من حولها ، اعرضت
أوراقها وتضخمت ، ظهرت لها أشواك طويلة مدببة » . اننا نقابل هذه
الصورة كثيرا فى قصصه . كرمز للصبر وقوة الاحتمال والاصرار على